

التنمية البشرية والتغيير الحضاري.

الباحثة حشاش فتيحة – جامعة باتنة 1

أ. د صحراوي مقلاتي – جامعة باتنة 1

الملخص

هذا البحث تناول بالدراسة موضوع التغيير الحضاري وكيفية الاستفادة من التنمية البشرية لتحقيقه، لذلك فإن الإشكال الذي طرحته في هذه الصفحات هو: كيفية تحقيق التنمية البشرية للتغيير الحضاري؟ ولمعالجة الموضوع استخدمت المنهج الوصفي التحليلي. وتكمن أهمية الموضوع في كونه يسعى للاستفادة من التنمية البشرية في تحقيق تطور حضاري ونهضة عامة لمختلف المجالات، وتهدف الدراسة للاستفادة من حيوية وفعالية التنمية البشرية في تحقيق مشروع التغيير الحضاري. لذلك فقد خلصنا لمجموعة نتائج أهمها: أن التكامل بين التنمية البشرية والدعوة الإسلامية من حاجات العصر ومتطلبات التطور الحضاري لنجاح عملية التغيير والنهضة.

الكلمات المفتاحية: التنمية البشرية، التغيير الحضاري، الفكر الإسلامي، النهوض الحضاري

Abstarct:

This article examines the subject of civilizational change and how to take advantage of human development to achieve it, so the forms I put forward on these pages are: how to achieve human development for cultural change? To address the subject, the analytical descriptive approach was used. The importance of the topic is that it seeks to benefit from human development in order to achieve a civilized development and a general renaissance of various fields. The study aims to harness the vitality and effectiveness of human development in the realization of the project of cultural change. We have therefore concluded a series of results, the most important of which are: the integration of human development and the Islamic call for the needs of the times and the requirements of civilized development for the success of the process of change and renaissance.

keywords Human Development, Cultural change, Islamic thought, Cultural advancement

لقد توالى نكبات العالم الإسلامي حتى أضحى هزيلا هشاشا، وأصبح مجتمعنا مجتمعا يتقلب في مختلف الآفات والمحن ويعاني تصدعات في مختلف منظوماته الأخلاقية والدينية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية.... الخ، ولم يعد قادرا على النهوض من وضعه المزري إلا إذا اتخذ طريقا قويا نحو التقدم والتغيير وخطى خطوات ثابتة ودقيقة نحو الأمام، فوضعه هذا هو الذي جعله لقمة سائغة في الأيدي الغربية حتى انهالت عليه من كل صوب وحذب لينهشوا في أخلاقه وقيمه ويزيحوا الستار على محارمه فقسموه إلى مذاهب وطوائف وزرعوا الفتنة بين أطرافه ليزيدوا من هول تصدعه، فغدا عالمنا الإسلامي كالجسد الذي يعاني أمراضا خطيرة أثقلت كاحله وجعلته عليلا هزيلا . كما أن ما أصاب الأمة الإسلامية من وهن وعجز طال كل المنظومات الأساسية فيها بدءا من المنظومة الأخلاقية والتعليمية؛ هذه الأخيرة التي بها تعلق الأمم وتزدهر ومن دونها تسقط، فالتعليم في العالم الإسلامي بدأ يفقد فعاليته في تخريج أجيال مشبعة بالثقافة الإسلامية وتعاليمها منذ أن أدخلت واستحدثت مناهج تربوية غربية في منظومتنا سعيا منها لمواكبة الغرب لتلحق بركب التطور والازدهار ظنا منها أن الانسلاخ من الهوية الإسلامية هو من سيحررها من قيود التخلف والرجعية. وبذلك ضيعنا أصول التعليم الإسلامي وضيعنا معه أصول التنشئة الاجتماعية،

وهذا ما انجر عنه جيل بعيد كل البعد على تعاليم الإسلام وأخلاق السلف. فحالة العالم الإسلامي المزرية هي نتاج الجمود الفكري والبعد الروحي عن الدين، إذ كلما اتسعت الفجوة بين الدين وبين أفراد المجتمع كلما كان سير المجتمع نحو الحضيض، ولا سبيل لإصلاحه وإعادة نهضته إلا إذا شمرنا سواعد الجد وخططنا لإصلاح شامل، وقد تكاتفنا لأجل ذلك الجهود

للإجابة على سؤال التجديد الرائد: ما سر تخلف المسلمين؟ ولماذا تقدم غيرنا وتأخرنا نحن؟؛ مع أننا نحوز على مادة التجديد وهو الإسلام؟. وما هي سبل التغيير وإحياء الأمة لتعود إلى سابق أمجادها ولنصلها بماضيها المشرق؟.. وكان من هؤلاء العلماء والمفكرين: جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، ومحمد إقبال، ومالك بن نبي، ومحمد الغزالي، ومحمد سعيد رمضان البوطي... وغيرهم كثير. ومع وقد أن توجهات هؤلاء العلماء ورؤاهم للتغيير الحضاري اختلفت، إلا أنهم اجتمعوا على غاية وهدف واحد هو أمر هذه الأمة، وضرورة انبعاثها من جديد وأساس هذا كله إعادة تنشيط مجال الدعوة الإسلامية وبعثها من جديد بوسائل مناسبة لعصرنا وحاجات مجتمعا. وفي ظل هذه الحال المزرية التي يعانيتها ويتخبط فيها العالم الإسلامي نجد أن هناك وسائل تنموية عصرية بدأ نورها يشع في الساحة العالمية وأخص بالذكر التنمية البشرية؛ هذه الأخيرة عرفت انتشارا واسعا في العالم العربي والإسلامي مثيرة الكثير من الجدل حول آليات وضوابط تطبيقها في العالم الإسلامي، لذلك فإن الإشكال المطروح في هذه الدراسة هو: **كيف تحقق التنمية البشرية التغيير الحضاري؟** .

المنهج المتبع في الدراسة:

وللإجابة على هذا التساؤل لابد من اتباع منهج علمي لذا فقد اخترت المنهج الوصفي لاحتوائه على آلية التحليل والوصف، وهذا ما أقوم به في هذه الدراسة وصف عام للقضية وتحليلها.

أهمية الدراسة:

تتمثل أهمية هذه الدراسة في كونها تسلط الضوء على أكثر المواضيع أهمية في الوقت الراهن وهي قضية التغيير الحضاري وآليات تحقيقه، كما

يكتسي البحث أهمية أخرى في كونه يتعلق بمسألة التنمية البشرية والتي تعد فناً وأسلوباً حيويًا بات يفرض وجوده بقوة على الساحة العلمية، خصوصاً أنه عرف تهافت العديد من الباحثين على التأليف فيه وبحث سبل تطويعه ليلائم البيئة الإسلامية. فهذا الموضوع تكمن أهميته في كونه يسعى للاستفادة من التنمية البشرية في تحقيق تطور حضاري ونهضة فكرية واجتماعية واقتصادية ... إلخ، ليعود العالم الإسلامي لسابق عهده يضاهاى الأمم ويتمصدرها. ولأن موضوعاً بهذه الأهمية إذ يكشف أطروحات مناهج التغيير والبناء في صرح الحياة الإسلامية، يجيء دور هذه الورقة البحثية؛ لتفصح عن طرح لمنهج من مناهج التغيير العصرية المقترحة كحل لبلوغ التغيير الحضاري.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة لتحقيق النقاط التالية:

_____ الاستفادة من حيوية وفعالية التنمية البشرية في تحقيق مشروع التغيير الحضاري.

_____ محاولة تطبيق وتفعيل التنمية البشرية في العالم الإسلامي، من خلال بحث سبل وآليات ومواطن تطبيقها.

_____ إبراز حاجة العالم الإسلامي للتنمية البشرية كأسلوب بديل لتحقيق نهضة الأمة وتغيير أوضاعها، من خلال تغيير الأفراد.

خطة الدراسة:

على ضوء ما ذكرت سابقاً ولمعالجة الموضوع ارتأيت أن أقسمه

للعناصر التالية:

أولاً: تعريف التنمية البشرية والتغيير الحضاري.

ثانياً: مقتضيات التغيير الحضاري الناجح.

ثالثا: الحركات الإصلاحية ومشاريع التغيير .

رابعا: الاعتناء بالفرد وأهميته في عملية التغيير .

خامسا: حاجة العالم الإسلامي للتنمية البشرية لتحقيق التغيير الحضاري.

— أولا: تعريف التغيير الحضاري والتنمية البشرية:

أ- تعريف التغيير الحضاري:

يعد مصطلح التغيير الحضاري من المصطلحات المعاصرة التي صاحبت موجات الإصلاح في العامل الإسلامي، ومن بين التعريفات التي عرف بها ما يلي:

— تعريف برغوث عبد العزيز مبارك: " يربط مفهوم التغيير ومضمونه بضرورة

استعاب موقفنا اتجاه موضوع وجودنا في هذا العالم قاصدا بذلك قضية الاستخلاف وما يتبعها على صعيد العبودية والعمران، وهذا الأمر لن يتم مالم نفهم ونعي موجبات حصول التغيير الاجتماعي في واقع أمتنا المتردي، فالتغيير المنشود هو ذلك الجهد الإنساني الذي يتيح لنا موجبات الوراثة الحضارية؛ فهو تغيير علمي عالمي عملي سيجتجه بالإنسانية من الطور الحضاري إلى الطور الأستخلافي ويفسر المشروع الحضاري للإسلام من الوجهتين النفسية والثقافية¹.

فالتغيير الحضاري هو الجهود البشرية التي تقود المجتمعات من الطور الذي هي عليه إلى الطور للتغيير الحضاري بكل ما يتطلبه واجب الاستخلاف من تكامل وتحقيق للعبودية .

¹ أنظر: عمر عبيد حسنة، المنهج النبوي والتغيير الحضاري، موقع المكتبة الإسلامية، رابط الموقع:

http://library.islamweb.net/newlibrary/display_umma.php?lang=&BabId=18&ChapterId=18&BookId=243&CatId=201&startno=0

– تعريف طارق سويدان: والذي اعتبر أن الحضارة هي المنهج الفكري للأمة المتشكل من الإنتاج المعنوي والإنتاج المادي، وعليه فإن العمل هو الذي يقود لايجاد الخلافة وتحقيق التغيير¹.

فالتغيير الحضاري هو الفكر المعنوي والمادي الذي يقود لتحقيق الخلافة الراشدة. لأداء وظيفة الاستخلاف التي ابتعث الله الناس لأجلها.

ب- تعريف التنمية البشرية:

مصطلح معاصر فهو لم يضبط بعد ولا يزال البحث فيه متواصلا، لذلك لم أجد دراسات أو كتب قامت بتعريف دقيق جامع مانع له، إلا ما ورد في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عن حق التنمية وبعض المقالات من بينها– ويقول سعيد عبد الله حارب: "فقد تطور تعريف التنمية وتعددت رؤية الباحثين له باختلاف رؤيتهم وتخصصهم واهتمامهم، فبعضهم كان يرى فيه الجانب الاقتصادي، وبعضهم نظر إلى التنمية من جانبها الاجتماعي، إلا أن هذه التعريفات لم تصمد طويلا، إذ سريعاً تطور التعريف ليشمل جميع جوانب الحياة الإنسانية، ولذا يصعب إعطاء المفهوم تعريفاً محدداً لكن يمكننا تحديد مفهوم تنمية الموارد البشرية بأنه عملية واسعة وشاملة ومستمرة ومتعددة الجوانب لتغيير حياة الإنسان وتطويرها إلى الأفضل"².

تطرق هذا التعريف للجوانب المتعددة التي تطرق فيها الباحثون لتعريف المصطلح، وفي ذات السياق يعرض تعريفه لمراحل تطور المصطلح، وفي

¹ طارق سويدان، مقدمة في مشروع التغيير الحضاري، برنامج رياح التغيير، قناة الرسالة، رابط الموقع:

<http://video.search.yahoo.com/search/video?fr=tightropetb&p=%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%BA%D9%8A%>

² سعيد عبد الله حارب، أسس تنمية الموارد البشرية من منظور إسلامي، مجلة الوعي الإسلامي، العدد 532، تاريخ العدد 03-09-2010.

ختم تعريفه حاول ضبط هذا المفهوم معتبرا أن مصطلح التنمية البشرية متعدد الجوانب باعتبار تعلقه بالإنسان والذي تتغير حياته وتتطور باستمرار. وبهذا ربط مفهوم التنمية البشرية بحياة الإنسان وتغيرها.

-تعريف آخر: "التنمية البشرية هي عملية مدروسة، مخطط لها، محددة الأهداف، تدار من الفرد أو المجتمع أو من كليهما، تسعى إلى إحداث تطور ونقدم، وتتعطف بالمستويات كافة، لا تحدها حدود فهي تطرق جميع أبواب مجالات الحياة كافة التي تؤثر في الفرد والمجتمع، فكل تلك الأهداف تسقى من منبع رؤية كونية محددة تهدف لتحقيق التطور المعول عليه، والتعامل مع كافة الوسائل الممكنة والمسموح بها من آليات بشرية ومادية ومعنوية، هدفها التغيير الشامل بطفرة تنموية خدمة للإنسان والزمن الذي يعيشه والمكان الذي يستوطنه، وذلك يبعث الإيجابية والمستوى الأفضل والأجدر منتقلين به — الإنسان — من غير المرغوب إلى المرغوب، ومن الحسن إلى الأحسن" ¹.

تطرق هذا التعريف بعمق لمفهوم التنمية البشرية وما يتعلق بها للوصول إليها، وقد كان تعريفه مضبوط وموفق إلى حد بعيد، فقد اعتبر التنمية البشرية عمل منظم يستدعي التخطيط له مسبقا، وهي تستهدف تطوير الفرد لتحقيق التطور الكامل في المجتمع وهذا من أهم أهداف التنمية البشرية وهي الرؤية الصائبة لها، لكن لم يدقق صاحب التعريف في الجوانب أو الطرق التي تتبع في عملية تطوير الفرد أو ما هي الجوانب التي لا بد أن نطورها في الفرد.

طلال فائق الكمالي، التنمية البشرية في القرآن الكريم دراسة موضوعية، (د.ن)، (د.ط)،
¹ (د.ت)، ص 62

من خلال ما سبق يمكن القول أن التنمية البشرية هي: تنمية مهارات الفرد وقدراته وتأهيله لتحسين أدائه ليتمكن من تحقيق أهدافه والرقي بمستوى حياته.

ثانياً: مقتضيات عملية التغيير الحضاري:

لعملية التغيير حملة من المقتضيات لا بد من مراعاتها عند وضع مناهج ومعالم مشروع التغيير ومن بينها ما يلي:

1- تحقيق الإنسان لعبوديته لله تعالى:

ويكون بتطبيق أوامر الله التي تحقق له الخير والسعادة، ومن ذلك أداء الوظيفة الأولى التي كلف بها، وهي الاستخلاف وعمارة الأرض بمعناها الشامل، ومن ذلك إقامة مجتمع إنساني مسلم، وإشادة حضارة إنسانية شاملة، ليكون بذلك الإنسان مظهراً لعدالة الله تعالى وحكمه في الأرض، ولكن لا بالقسر والإجبار، بل بالتعليم والاختيار. وهذا هو ما دل عليه صريح الآي القرآني الذي يبين معنى استخلاف الإنسان في الأرض تحت وصف العبودية المطلقة. فالاستعمار يقصد به إعمار الأرض وخدمتها لتحصيل المنافع والرقي في مدارج المدنية والتحضر. شريطة أن تكون حافلة بمعاني العبودية والإخلاص لله تعالى. وقد ربط المنهاج القرآني عمارة الإنسان للأرض بشرط التزكية الأخلاقية والنفسية لأن شذوذات النفس ورعوناتها أول عائق في طريق الخلافة والاستخلاف، والتزكية النفسية تكون بالسبل التربوية والرياضية، وامتثال المبادئ الاعتيادية وممارسة النسك و العبادات التهذيبية و فضائل الأخلاق¹.

¹ البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر، دمشق، سوريا، ص 24.

2- التعرف على مكونات الحضارة :

يكون ذلك بالتعرف الدقيق على المتغيرات التي تم جمعها في معادلة الحضارة، لأن جمعها لا يعني تحقيق التحضر بالضرورة، ولهذا يقول الشيخ البوطي: «إن عملية إنشاء الحضارة، إنما هي في الحقيقة صورة مكبرة جدا، لأي تركيبة كيميائية يعكف على تحضيرها أي متخصص، من مجموعة مواد و عناصر معينة، فكما أن نجاح هذا التركيب فيما يراد أن يتحول إليه، متوقف على معرفة دقيقة لطبيعة تلك المواد وخصائصها، فكذلك نجاح السعي إلى إنشاء الحضارة، متوقف على معرفة تامة بطبيعة موادها وعناصرها الأولية، معرفة لا يشوبها أي خطأ أو وهم.» فالتركيب المتناسق والمثمر الذي يصل بالإنسان للحضارة والسعادة، هو الذي يتم عن طريق معرفة حقه بعناصر الحضارة الثلاث التي هي:

* معرفة الإنسان لهويته، وأصله، و مآله.

* إدراك أسرار الكون و نواميسه.

* فقه معنى الحياة (الوقت)، وقيمتها، و مصدرها و عاقبتها¹.

3- إرادة التغيير:

يكون التغيير أولا بوجود رغبة عارمة في النفس الإنسانية، وهي الإرادة في التغيير والتبدل نحو الأحسن والأفضل، ويرى البوطي أن هناك فرقا كبيرا بين الرغبة في التغيير، الذي هو جامع مشترك في التغيير، وبين الرغبة في سلوك سبل التغيير، وهذا هو ما ينقص العالم الإسلامي اليوم، ينقصهم السير في السبل التي يستطيعون بها أن

¹ البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم، ص 33.

يطوروا أنفسهم، وأن يغيروا مسارهم من الأسوأ إلى الأحسن والأفضل. وهذه هي المسؤولية التي حملها الله الإنسان، فلإنسان مطلق الحرية أن يتحرك في التغيير نحو الإيجاب ونحو السلب، حسب إرادته وسعيه، حسب قربه من الله أو بعده منها، وعلى قدر ذلك يتحدد نوع التغيير، إذ العلاقة فيها طردية، ومتى ما اشتعلت الرغبة في الإصلاح وتبديل الأوضاع جاء العون الإلهي في سبل التغيير ونتائجها. ومن ذلك التطور المادي والاقتصادي...¹ فالإرادة لا بد لها من أسباب تقدم، وتضحيات جسام، وكدح وسعي، وهذا يكون بالعمل والسعي.

4- العمل الجماعي المنسق:

يرى البوطي أن التجارب الفردية، حتى وإن كان لها صدى إلا أنه قريب المدى، هزيل الثمر، ولهذا لا بد للنهوض بالحضارة، أن يكون مشروعاً جماعياً، يشترك فيه أكثر من طرف، المجتمع بجميع شرائحه، والحكام والمسؤولين بكافة قطاعاتهم، "ذلك لأن أي تحرك نحو التحرر من التخلف وأسبابه، والصعود في مراقبي الحضارة، إنما يعتمد على مجهود جماعي متضافر(..) لذا فإن كل ما قد يوصف لهذا المجهود من علاجات وأسباب، يجب أن يناط بالهيئة الاجتماعية العامة، متمثلة في أغلبية الناس، على اختلاف فئاتهم ومستوياتهم"².

¹ أنظر، محمد سعيد رمضان البوطي، وجودت سعيد، التغيير مفهومه وطرائقه. ندوات الفكر الإسلامي المعاصر 2، دار الفكر، دمشق، سوريا، ص 7.

² البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، (مرجع سابق)، ص 160.

5 - القضاء على التجزؤ و أسبابه:

ويكون بذلك بأن نهرع إلى لملمة الأمة، والعمل على إعادة وحدتها، فكما أن الشتات سبب التخلف، فالوحدة هو علامة البدء في صعود سلم التقدم، وجمع الكلمة، وهذا يكون بملء الفراغ الرهيب الذي تعاني منه الأمة، وخدمة القيم والمبادئ، والمعتقدات بترسيخها، تعزيزها حتى تغدو جامعا مشتركا للأمة كلها، فمتى ما تحقق الجامع المشترك، أمكن الحوار في ظل الاختلاف، والاجتماع لدرء الشقاق والنزاع.¹

فعملية التغيير تعتمد على خمس مقتضيات أساسية تطرق لها البوطي في العديد من كتبه، وهي في مجملها تدور حول تحقيق الإنسان للعبودية والتعرف على مكونات الحضارة وإدارة التغيير والقضاء على التجزؤ وكلها تشكل أساسيات التغيير الناجح.

ثالثا: الحركات الإصلاحية ومشاريع التغيير:

إن الحال المزري الذي تعانيه الأمة الإسلامية والتيه الذي تتخبط فيه لا مفر لنا منه إلا إذا نهضنا وشمّرنا ساعد الجد وخطونا خطوة جادة نحو التغيير، واتبعنا منهجا دقيقا للتجديد وإعادة إحياء الروح الإسلامية في قلوب الناس، وليكون لنا ما أردنا علينا أن نسعى سعيا حثيثا باتخاذ كل الوسائل والأساليب المباحة والمتاحة في سبيل ذلك، لأن حاجتنا للتجديد ماسة، أكثر من أي عصر مضى.

¹. المرجع نفسه، ص 162، 163.

فبالرغم من أن ما عاناه العالم الإسلامي من ركود وجمود فكري وعلمي في مختلف المجالات إلا أنه شهد شرارات وأصداء لوحات بالتجديد ونادت به، وكانت أولى خطواته نحو التغيير وبداية عهد صحوته وسيره في طريق النهضة، فنجد هناك العديد من الحركات التي أنارت جوانب من وعي الأمة وسعت لتجديد صحتها الدينية والفكرية وبعث روح الدين فيها من جديد وساهمت في إرساء أسس الإصلاح والنهضة في العالم الإسلامي، وإن كان الحديث عن هذه الحركات الإصلاحية ذو شجون باعتبار أن بدايتها وثيقة الصلة بحديث الناس عن الإصلاح والنهوض، كما أننا لا نتوقع أن نشهد أية نهاية لذلك، فهي مربوطة بالنشاط الإنساني وسعيه المستمر للتطور والتقدم، كما أن "مسؤوليات الصفة المستتيرة في كل بلد القيام بإيجاد استنارة عامة لدى جمهور الناس باحتياجات النهضة وبتقافتها وبالبيئة التي تتطلبها؛ وذلك أن قناعات الناس بمستلزمات الرقي والازدهار تشكل البداية الضرورية لانطلاقهم نحو تحمل مسؤولياتهم على طريق النهوض"¹، لذلك فإن تاريخ الحركات الإصلاحية ليس محددًا بتاريخ معين أو بحادثة بعينها لأن هدف الإنسان في الحياة مربوط دائمًا بالتغيير.

كما أن الظروف المزرية التي يتخبط فيها العالم الإسلامي والتي من أبرز أسبابها الاستعمار الذي سعى لإعاقة تطور العالم الإسلامي في مختلف المجالات الفكرية والسياسية والاجتماعية والثقافية، وكل تلك الظروف ساهمت في زيادة الضغط على أفراد المجتمع الإسلامي

¹. عبد الكريم بكار، من أجل الدين والأمة، دار السلام، ط1، 2010، ص 5

ما فجر وعيا في صفوف العديد من المثقفين تصدّرها العديد من المصلحين، فكان كل مصلح ينظر إلى الإصلاح من جانبه الخاص، ويدعو إلى التجديد والتغيير، في نطاق بيئته وثقافته، وأمثال هؤلاء: محمد بن عبد الوهاب، جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، ابن باديس ومحمد إقبال ومالك بن نبي والذين يعدون مصابيح تنير دروب الساعين للتغيير والإصلاح.

إن الحركات الإصلاحية التي توالى على العالم الإسلامي عانت العديد من النقائص التي عكرت صفو أهدافها وأحالتها عن الفعالية والتغيير المنشود، ولا يمكن إلقاء التهم والصاق سبب الإخفاق بالاستعمار، بل إن تخييب التركيز على الفكر الإسلامي هو ما سبب انهيارها، "لقد نتج عن هذا أن الحركة الإصلاحية لم تستطع تغيير النفس الإسلامية، بل لم تستطع أن تترجم إلى لغة الواقع فكرة (الوظيفة الاجتماعية) للدين ولكنها على أي حال نجحت في إزالة الركود الذي ساد مجتمع ما بعد الموحدين"¹.

إن العالم الإسلامي اليوم بحاجة إلى مثل تلك الحركات التي أقيمت جانبا من وعي الأمة الإسلامية، وحركت شيئا من الحياة فيها، لتدب فيها نوعا من النشاط واليقظة والتي كان من ثمارها نفض الغبار على الفكر الإسلامي وتجديد مناهج التعامل مع القرآن والسنة، وإعادة فتح باب الاجتهاد في الفقه الإسلامي... إلخ.

¹ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دار الوعي، ط1، 2013، ص61

رابعاً: الاعتناء بالفرد وأهميته في عملية التغيير:

على الرغم الجهود التي بذلتها الحركات الإصلاحية على اختلاف أهدافها ومنهجها في الإصلاح إلا أنها لم تصل لدرجة الفعالية الاجتماعية، رغم محاولات العلماء والمفكرين وجهودهم الحثيثة في سبيل إيجاد حلول ناجعة للأزمة، وفي هذا السياق يقول المفكر مالك بن نبي في معرض نقده للحركة الإصلاحية قائلاً: "لقد نتج عن هذا أن الحركة الإصلاحية، لم تستطع تغيير النفس الإسلامية، بل لم تستطع أن تترجم إلى لغة الواقع فكرة (الوظيفة الاجتماعية) للدين ولكنها — على أية حال —

نجحت في إزالة الركود الذي ساد مجتمع ما بعد الموحدين"¹، فإن عدم بلوغ تلك الحركات لمستوى التغيير المطلوب هو ما يفرض علينا إعادة النظر في كل ما بذلناه لتقييم جهودنا الإصلاحية، ومن ثم البحث عن سبل بديلة نستدرك بها تلك النقائص التي حالت دون أن تحقق الحركة الإصلاحية مرامها ومبتغاها، ذلك أن أسس التغيير الناجح يتطلب الإحاطة بعدة جوانب والتي أغفلتها الحركة الإصلاحية.

كما أحصى سهيل الغنوشي أسباب فشل الحركات الإصلاحية في تحقيق النهضة الموعودة في العالم العربي قائلاً: "حسابات خاطئة وخطط ارتجالية، وأداء هزيل لنخب نرجسية وانتهازية تستبجح كل شيء في صراع وجودي لاحتكار السلطة بلا ضوابط ولا محرمات سرعان ما يتمخض عنه هيمنة وإقصاء يقابلهما خضوع تحته تربص

المرجع نفسه، ص 61.¹

وتعويق ومراهنة على الفشل.."¹. فسوء التخطيط والتنظيم لتلك الجهود وعدم تقدير المشاكل والأسباب الرئيسية اللازمة والتعصب للرأي هي أسباب كانت وراء عدم فعالية هذه الحركات وفشلها في تحقيق النهضة والتغيير.

إلا أنه لا يمكن إنكار ما قام به العلماء من جهود في سبيل إرساء قواعد التغيير الفعال في المجتمعات، فلا ريب أن أساس هذا التغيير هو الإنسان لا غير وهو السبيل الفريد الذي لا بديل له من أجل تحقيق النهضة، دون إغفال ضرورة تحقيق التكامل بين حلقات سلسلة العملية الإصلاحية، "لأن السبيل لتغيير المجتمع يكون عبر هذه النقاط الثلاث:

- 1 – توحيد الأفراد نحو غاية واضحة لا بد من الوصول إليها
- 2 – تواجد مجموعة مفكرة قادرة على معالجة المعلومات ووضع الخطط والأهداف 3. توفر الإمكانيات المادية والعلمية والأخذ بالأسباب لتحقيق الغايات. ولن يتحقق لنا ما نرجو إلا إذا وجهنا جهودنا الإصلاحية نحو بناء الأفراد القادرين على تحمل هذه المسؤوليات أولاً بإعادة برمجتهم وتطوير عقولهم ليتمكنوا من فهم عمود المجتمع وأن قدراتهم لا يمكن الاستغناء عنها بل هي أساس نجاح النقلة التي يتوجب على العالم الإسلامي أن يخطوها ليصل إلى التغيير، وذلك عبر تغيير الصفات البدائية للفرد بتغيير حاله من كائن مستهلك كسول إلى شخص جاد في عمله مخلص فيه مدركاً أهمية العمل في

¹ أنظر: سهيل الغنوشي، هكذا تنهض الشعوب والأوطان، موقع الجزيرة، رابط الموقع : <http://www.aljazeera.net/knowledgegate>

سبيل بناء مجتمعه الفاضل. ولعجزنا عن تحقيق هذا فإننا نجد أن معظم أسباب تخلفنا تكمن في هذه النقطة وهي انعدام المسؤولية لدى الفرد وجهله أو تجاهله لقيمته في سبيل بناء مجتمعه"¹.

فالفرد بحاجة إلى أن يشعر بقيمته وبأهمية طاقاته ويستشعر عظمة ما ميزه الله به من مواهب تحتاج للتفجير وحسن التسيير والاستغلال. وإدراك الفرد قيمة ذلك مع إعادة بعث روح الدين فيه ستجعله مستوعبا لدوره في التغيير، ويعي حجم المسؤولية الملقاة على عاتقه.

فأساس الإصلاح الناجح في المجتمع هو الحرص على الالتزام بالتعاليم الإسلامية أولاً، ومن ثم الاعتناء بالفرد وجعله محورا للتغيير، "فالغمة لن تتكشف بالدعاء فقط، بل لابد أن يسبق هذا الدعاء ويصاحبه تحول حقيقي عن كل ما يغضب الله، وانتقال إلى ما يرضيه، فلا بد من روح جديد يستوي في كل كيان الأمة فيوقظها من سباتها، ويعمل على تغييرها تغييرا جذريا يشمل المفاهيم والتصورات، والسر والعلانية، والأقوال والأفعال، لابد أن تعود الأمة إلى الله وتتجه إليه وتعمل على استرضائه"².

¹ أنظر: محمد موسى، فلسفة الثورة: بين بناء الذات وبناء الحضارات، موقع نون بوست، تاريخ النشر: 32 أكتوبر-2013، رابط الموقع

: <http://www.noonpost.org/content/772>

مجدى هلاي، كيف نغير ما بأنفسنا، دار الأندلس الجديدة للنشر والتوزيع، ط1، 2011، ص 24.²

لقد لخص مجدى هلالى أهم ما يجب أن يراعى في الإصلاح الناجح، متطرقا في ذلك لمختلف الجوانب التي تشكل في مجملها أهم أسباب العطل الضارب في العالم الإسلامي.

كما انطلق مجدى هلالى في فكرته هذه من تفسير قوله تعالى في سورة الرعد: « لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ »¹، والمطلع على سياق آية التغيير هذه يجد أنها جاءت بعد عرضه سبحانه وتعالى للعديد من دلالات قدرته وعظيم قوته، ليقول بعدها الله للناس أن بالرغم من قدرته على تغيير حالهم من أسوأ حال إلى أحسن حال في لمح البصر إلا أنه لن يحقق لهم التغيير الذي يريدونه إلا إذا بدؤوا هم بأنفسهم وسعوا إليه، حينها فقط سيغير حالهم إلى الحال الذي يرضيهم، فلن يغير الله حال أمتنا ولن ينزل نره علينا ويعيد لنا مجدنا الضائع إلا إذا بدأنا نحن بتغيير ما بأنفسنا².

إن صلاح الفرد المسلم هو وحده ما سيصلح حال المسلمين، وينقلهم من حال الركود لحال النشاط والتفاعل مع آليات التغيير الاجتماعي، لذلك يعد جهاد النفس والتحكم فيها وتغييرها هو أصعب أنواع الجهاد، ومتى تمكنا من الانتصار على أنفسنا صرنا قادرين على التحكم في أوضاعنا وتغييرها.

¹ سورة: الرعد، آية: 11.

² المرجع السابق، ص9.

فصناعة الحضارة تستوجب منا صناعة الإنسان القادر على صناعة الحضارة والتاريخ، وذلك بإعداده نفسيا وماديا لذلك، وتخليصه من مختلف الخرافات التي تكف نشاطه وتحد من فعاليته وتشعره بالعجز الدائم، كما لن يكون هذا الفرد فريسة سهلة ولقمة سائغة للغرب، فبارتقائه وتطوره سيتحرر من عقدة النقص والحرمان وبالتالي التخلص من الرغبة في تقليد الغرب لإشباع رغبته في التحضر والتمدن، وليزيح عنه صفة التخلف"¹.

إن ضرورة الاعتماد على الفرد لتغيير وضع الأمة الإسلامية بات أمرا ضروريا، خصوصا لما تخطى عن واجباته الدينية، وأصبح مقعد الفكر لا يساهم في صناعة فكرة بناءة من أجل خدمة أمته، كما أن عملية تطوير الفرد لا تقتصر على جانب دون آخر، بل لا بد أن تكون تنمية شاملة لمختلف نواحي شخصيته.

إن اعتناء العلماء والمفكرين بالفرد كمحور للتغيير إنما ينم عن وعيهم بما يمتلكه الإنسان من قدرات وطاقات كامنة تتوجب إيقاظها وتنميتها، وقد ربط الله سبحانه وتعالى التغيير بالنفس الإنسانية لكونها تحتوي من الطاقات ما تجعلها مؤهلة وقادرة على بلوغ عنان الجبال. ولا يخفى على أحد دور الفرد في بناء مجتمع صالح قادر على إنتاج حضارة تعم بالخير والأمن والاستقرار، (...). فالفرد والمجتمع

¹ . أنظر: مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص144

نسيجٌ واحد لا يمكن فصل أحدهم عن الآخر، وعليه فلا بد من تنسيق عملي بين الفرد والمجتمع لتحديد أولوياتهم والتخطيط لأهدافهم¹.

وهذا ما يعد من أهم أسس التغيير الناجح، فإذا كان فساد الإنسان وبعده عن الدين وانحطاطه الأخلاقي وركوده الاجتماعي هم سبب النكبة والوضع الذي يعانيه العالم الإسلامي اليوم، فإن السبيل للتغيير لا بد أن ينطلق من السبب الرئيسي ذاته، فالمسلم الصالح في نفسه هو الفرد المؤهل لإصلاح المجتمع وهذا ما تضمنته رسالة الإسلام.

فتغيير الإنسان وتهنيته ليكون جاهزا لوظيفة الاستخلاف وعمارة الأرض يتطلب من المصلح تحرير طاقات الأفراد الدفينة وتشجيعهم على تفجيرها، والعمل على التجنيد الرشيد لمقوماتهم العقلية والنفسية والإدراكية والجسدية، وهذا ما يجعله عاملا رئيسا فاعلا في عملية النهضة والتطور الحضاري .

وكخلاصة للقول إن سبب فشل الحركات الإصلاحية هو خطئها في تقدير حقيقة الإنسان وقدراته، والسبيل الأنجع للتغيير هو الانطلاق من الفرد بجعله محورا وعاملا أساسيا في العملية الإصلاحية، ببحث سبل تغييره وإخراجه من حالة الركود والبعث عن الدين إلى حالة التفاعل مع مجريات العصر ومشاكل الأمة، ولن نفلح في تغيير الفرد إلا إذا امتلكننا الأساليب القوية التي تخترق كيانه وتزرع شعوره بالمسؤولية وتجعله يقدر ما حياه الله إياه من طاقات تستلزم استغلالها وتمييتها بما يساهم في إنجاح المخطط الإصلاحي.

¹ محمد موسى، فلسفة الثورة: بين بناء الذات وبناء الحضارات، موقع نون بوست، تاريخ النشر: 32 أكتوبر-2013، رابط الموقع <http://www.noonpost.org/content/772> :

خامسا: حاجة العالم الإسلامي للتنمية البشرية لتحقيق التغيير الحضاري .

يعتبر موضوع التغيير من أهم المواضيع التي اعتنت بها أقلام المفكرين والعلماء باعتبارها حجر الأساس للتطور الحضاري والتقدم والازدهار، وسعيا منهم لبلوغ هذا الهدف بحثوا في سبل هذا التغيير وبدأت دندنات من هنا وهناك في شكل مشاريع تمويمية، وطرقت في هذا السياق العديد من المواضيع التي أثارَت حملة من الجدل في أوساط النخبة، كموضوع التجديد وموضوع الاقتباس من الحضارة الغربية.

ويعد موضوع التجديد من أهم المواضيع التي شغلت حيزا كبيرا من فكر العلماء والمفكرين، فجادت في هذا المجال أفلامهم وأبدعوا في طرح هذا الموضوع ومعالجته من مختلف الزوايا، كموضوع تجديد الخطاب الديني، تجديد العمل الإسلامي، وإن كان لهذا الموضوع أخذ ورد بين العلماء في ما يصلح للعلوم الإسلامية وما لا يصلح لها، إذ نجد أن من بين العلماء الذين حملوا لواء التجديد ونادوا به محمد الغزالي، ويوسف القرضاوي ومالك بن نبي، عبد الكريم بكار.... الخ.

وبغض النظر عن الجدل القائم بين العلماء حول موضوع التجديد تبقى حاجة الدعوة الإسلامية إليه ضرورة ماسة تستلزمها تطورات العصر ومتطلبات الحياة، فلا يعقل لدعوة بحجم الدعوة الإسلامية التي من أهم خصائصها المرونة أن تعارض مواكبة تطورات العصر.

كما أن اعتنائنا بموضوع التجديد كحل للتغيير والرقى، يتطلب منا معرفة ماذا نجدد؟، إن التجديد كما نص على ضوابطه أغلب من نادى

به أنه يتم على مستوى الوسائل والآليات فقط دون المساس بأصول الدين الإسلامي، وفي هذا الصدد يقول إبراهيم صلاح السيد الهدهد عن مفهوم التجديد وضوابطه: " فهم النصوص الشرعية في نور المقاصد الكلية للشريعة، بما بلأئم واقع الناس، وهو يعني أيضا: تجديد الطرق والأساليب والقوالب والصيغ والمناهج، ولا يمس الثوابت ولا القطعيات¹."

فحال الأمة المرير لن يتغير ما دمنا نفتقر لآليات التغيير السليم، وسبل الإقناع المؤثر، خصوصها أن من أبرز ما أدى لجمود الفرد المسلم هو تبلد مشاعره وموت الضمير فيه وبعده عن الدين. وهذا راجع لفشل الدعاة في مهمة تغيير سلوك الإنسان، بالإضافة إلى فشلهم الذريع في تقريب الدعوة من قلوب الناس وإنزال الدين لحياتهم الاجتماعية وتوظيفه في حل مشكلاتهم وهذا كله بسبب سوء تكوين الدعاة وضعف أدائهم، فالمشكلة مشكلة ضعف الخطاب الدعوي في تحقيق التأثير المطلوب.

كما أن الأمة الإسلامية بحاجة إلى أساليب حيوية جديدة لمعالجة المشكلات، ولتقريب الدعوة الإسلامية من الأفراد وجعلهم يستشعرون وجود الله ويجددون عهد إيمانهم به بتطبيق أوامره وإتباع تعاليمه، وهذا كله متوقف على مستوى أداء الدعاة وقدراتهم الخطابية والتواصلية.

إبراهيم صلاح السيد هدهد، تجديد الخطاب الديني ضرورة كل عصر، مجلة منار الإسلام، العدد 495، ص 20

وفي خضم هذه الدعوات المنادية بالتجديد والبحث عن سبل تحقيقه نجد أن هناك علم جديد بدأ يطرق مجال الدعوة الإسلامية كمنهج جديد للتجديد في الوسائل والأساليب الدعوية وهو أسلوب التنمية البشرية، ورغم ما أثير حوله من شبهات والتي تبيحه تارة وتحكم عليه بالحرمة تارة أخرى، نجد أن هناك كوكبة من العلماء أشارت إلى ضرورة استخدام التنمية البشرية في تجديد الدعوة الإسلامية.

ومن بين رواد هذه الفكرة مالك بن نبي الذي أشار في أغلب كتاباته وفي أكثر من موضع إلى ضرورة وجود علم يسعى إلى إعادة روح الدين لحياة الناس، ومن بين هذه الأفكار التي تعد من قبيل إشارات أراها بادية للعيان فهي ترمي لإبراز ضرورة التجديد في الدين الإسلامي من خلال توظيف التنمية البشرية في مجال الدعوة الإسلامية منها ما يلي :

— إن لدى مالك بن نبي نظرات ورؤى فيما يتعلق بموضوع التجديد؛ فهو يراه حاجة ضرورية لإحداث التغيير، منطلقاً من فكرة أن الدين هو المتحكم لوحد في الوعي الاجتماعي، وإحداث هذا التغيير لا بد من التركيز على الإصلاح الديني فقال: "فالإصلاح الديني ضروري باعتباره نقطة في كل تغيير اجتماعي" ¹.

— لقد أشار مالك بن نبي إلى ضرورة وجود علم يكون أسلوبه قوي وقادر على تجدد صلة العبد بربه فقال: "وتغيير النفس معناه إقذارها على أن تتجاوز وضعها المألوف، وليس هذا من شأن (علم الكلام)

مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 155 ¹.

بل هو من شأن منهاج (التصوف)، أو بعبارة أدق هو من شأن علم لم يوضع له (اسم) بعد، ويمكن أن نسميه (تجديد الصلة بالله)، (...). لا يمكن أن يقدم لنا الأساس الضروري للإصلاح، عندما نحث جهودنا إلى النهضة، فهو لا يستهدف سوى تطهير بعض الأنفس من الخطايا، على حين يهدف الإصلاح إلى توفير الدافع الداخلي لدى جماهير الشعب، تلك الجماهير المتعطشة إلى (انتفاضة القلب)، كيما تنتصر على ما أصابها من خمود¹. إن كلام بن نبي فيه إحياء إلى ضرورة تجديد أساليب تبليغ الدعوة الإسلامية وتجديد صلة الناس بربهم، والتنمية البشرية هي منهج لتزكية النفس وتطهيرها ودفعها نحو البذل والتغيير، وهي ما أطلق عليها انتفاضة القلب، فالإنسان يحتاج لدعوة تهز كيانه وتثير مشاعره تشعره بالرغبة الجامحة لكسر الجمود والامتنال لما يسمع. والتنمية البشرية تمكن الداعية من معرفة أصناف الناس وطباع شخصياتهم وبالتالي يكون قادرا على إيجاد الخطاب المناسب لهم والذي يضمن له الوصول لبؤرة التأثير فيهم.

– أشار مالك بن نبي إلى ضرورة تفعيل الدين في الحياة الاجتماعية؛ من خلال تكوين إنسان يسعى للتكامل بين الوقت وبين واجباته وهذا ما تحققه لنا التنمية البشرية فهي تهدف إلى برمجة الإنسان والارتقاء به لدرجة الكمال البشري بحيث يعرف ما عليه من واجبات ويعمل على إنجازها وفق خطط منهجية، وبالتالي تحقيق التكامل بين الدين كرسالة حياة وقيم يسعى لترسيخها وبين التراب الذي يعد الأرض الواجب تطويرها والتي تعني مجتمعه وبيئته وبين الوقت الذي هو عامل زمني

المرجع نفسه، ص 54¹.

يحدد مقدار جهده " ¹. فالتنمية البشرية تسعى من خلال العديد من مهاراتها وأساليبها إلى حث الأفراد على التخطيط المحكم لحياتهم وصناعة أهدافهم وبالتالي تمكينهم من أن يكونوا أفرادا رساليين في المجتمع، يتحركون وفق خطة وبرنامج وهدف مسطر.

– وأشار مالك بن نبي إلى أهمية بناء الشخص المتكامل وما لهذه الشخصية من قوة على التغيير، فيقول: "فالمرء عندما يبلغ دور الاكتمال يضغط على نفسه، ويخالف ما درج عليه، محاولا بذلك تعديل وضعه، وحينئذ يصبح كلامه إرادة وعملا يدلان على وجود علاقة بين الكلمات والوقائع، فإذا ما انعدمت العلاقة بين الكلام والعمل أصبح الكلام هذرا" ². وهذا لن يتحقق إلا إذا وظفنا ما تعمل عليه التنمية البشرية من تنمية وتطوير لمهارات الأفراد، وما تحققه من دافع قوي نحو التطبيق الفعلي لكل ما يتلقونه. وبالتالي فالتكامل بين الدعوة الإسلامية والتنمية البشرية هو وحده يصنع الإنسان المتكامل وإذا جمعنا بين قوة الخطاب الدعوي وأساليب الإقناع التي توفرها التنمية البشرية نكون حينئذ قد فعلنا الخطاب الإسلامي وحولناه لأفعال على أرض الواقع.

– يرى مالك بن نبي أيضا أن عملية الانتقال من حالة الركود إلى حالة النشاط تستدعي منا إيجاد وسائل وأساليب بديلة تحقق هذا الانتقال، وما تضمنه كلامه ينطبق على ما تحققه وسائل وأساليب التنمية البشرية من تغيير لسلوك الإنسان ومستوى نشاطه، فهي تحفز

¹ مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص32.

² أنظر: المرجع نفسه، ص70.

وتدفعه للبذل أكثر من أجل تغيير ظروفه المادية أولاً؛ كأن تنمي مهاراته التي يحتاجها في عمله، بحيث كلما توفر للإنسان كل احتياجاته المادية أصبح أكثر راحة واستقرار وبصبح أكثر استعداد للتطور والاجتهاد، "فالانتقال من الحياة البدائية الراكدة إلى الحياة العاملة الناشطة، هو الذي يسجل إذن بداية حضارة ما أو نهضة معينة، لكن هذا الانتقال يظل في التاريخ من الظواهر الغير مفهومة لو أنه استلزم وسائل أخرى غير التي تقدمها البيئة، ولو أنه استخدم في الحصول على تلك الوسائل شيئاً غير ما منحه من قدرات طبيعية يسيطر بها على ذاته وعلى أرضه وعلى وقته"¹. وفي ذات الفكرة يقول في موضع آخر أن على الإنسان أن يمتلك وسائل تساعد على الإبداع فيقول: "وليس يكفي مجتمعا لكي يصنع تاريخه أن تكون له حاجات، بل ينبغي أن تكون له مبادئ ووسائل تساعد على الخلق والإبداع"².

والتنمية البشرية تتيح للأفراد صناعة أفكار إبداعية من خلال مهارة العصف الذهني، والتدريب على تنميتها من خلال مهارات التفكير الإبداعي، وغيرها من المهارات التي تكسب الفرد ملكة الإبداع وتنميته فيه. والدعاة واليوم وكل المشغلين في الحقل الدعوي بحاجة إلى الى أفكار إبداعية لتجاوز بها مشاكلنا الاجتماعية التي يعانيها الناس، ولإيجاد طرق جديدة أكثر حيوية لتبليغ رسالة الإسلام للناس وجني ثمار جهودهم بحملهم على تطبيقهم لها.

مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص 98 .¹
المرجع نفسه، ص 142 .²

_____ إن أساس التغيير هو النفس البشرية، وبالتالي لتحقيق ذلك لا بد أن نفهم هذه النفس معرفة دقيقة للإطلاع على مكنن ضعفها وبالتالي التعرف على موقع التغيير وفي هذا المعنى يقول بن نبي: "ينبغي أن نعرف أنفسنا، (...). وبهذه الطريقة ينقشع الغموض عن خفايا النفس، فيما بعد الموحدين، لنعرف أين ينبغي إحداث التغيير الضروري"¹، والتنمية البشرية من خلال أساليبها تمكن الداعية من معرفة أصناف المدعويين ومختلف الأنماط البشرية ومميزات كل شخصية، ومن بين الأساليب التي تحقق ذلك وتعرف الداعية بأنواع الناس البرمجة اللغوية العصبية، لذلك فإن تحقيق التكامل بين التنمية البشرية والدعوة الإسلامية سيساهم كثيرا في معالجة العديد من النقائص التي تعاني منها الدعوة الإسلامية .

— إن حاجة الدعوة الإسلامية لأسلوب التنمية البشرية ضرورة تملئها علينا تطورات العصر واحتياجات الناس، فالدين وحده لن يقدر على التغيير، وكذلك العلم والمادة وحدها لن يكون لهما أثر وصدى، لذلك لا بد أن نجمع بين التنمية البشرية التي تمثل الشق العلمي لفهم الإنسان واستنباط قواه واستنطاق مهاراته، وبين الروح التي تتمثل في الدين، فيقول مالك بن نبي في هذا الصدد: "فنهضة العالم الإسلامي، إذن ليست في الفصل بين القيم، وإنما هي في أن يجمع بين العلم والضمير، بين الحق والفن، بين الطبيعة وما وراء الطبيعة، حتى يتسنى له أن يشيد عالمه طبقا لقانون أسبابه ووسائله وطبقا لمقتضيات

المرجع نفسه، ص 154. ¹

غايته، إن الذي يرد للعالم شبابه، لابد أن يكون (إنسانا جديدا) ، قادرا على حمل مسؤوليات وجوده ماديا وروحيا¹ .

هذه بعض الدلائل التي احتوتها كتابات مالك بن نبي والتي تعد تلميحات للاعتناء بالجانب النفسي لتغيير سلوك الإنسان كمبدأ أساسي للتغيير الاجتماعي، ودعوة صريحة منه لاستخدام كل الأساليب التي تفرزها تطورات العصر، فحسبنا أن نهتم بالتجديد في الدين لنمتلك دعوة قوية بإمكانها أن تخرق قلوب وعقول الأفراد، والسبيل الوحيد لذلك أن نستفيد مما تقدمه لنا التنمية البشرية من وسائل وأساليب وسبل لتفجير الطاقات الدفينة في نفوس الأفراد وتطويرها، وبهذا ينتهج العالم الإسلامي سبيلا جديدا للنهضة، مدفوعا في ذلك بإرادة لا ترهب العقبات بل تقهرها، متجاوزة كل العراقيل المادية وتحدي الاستعمار.

وقد تناول بكار ضرورة تبني منهج التنمية من أجل التغيير مرجعا ذلك لعدة أسباب تبين في مجملها أهميتها في تحقيق النهضة والرقى. ولم يقتصر في طرحه للموضوع على تنمية مهارات الأفراد بل تجاوزها للمفهوم الواسع للتنمية بمعنى تنمية لمختلف مجالات الحياة؛ اقتصادية واجتماعية وسياسية وصحية وإدارية... الخ.

— إن ضرورة استخدام كل ما تنتجه تطورات العصر من أجل النهضة والتطور الحضاري لا غنى لنا عنه وهذا ما حث عليه الدكتور بكار إذ قال: " إن الأمم التي فقدت إحساسها بهويتها لم يحدث لها ذلك إلا بسبب ضعف مشاركتها الحضارية وضعف فاعليتها، مما جعل تحديد

¹ مالك بن نبي ، وجهة العالم الإسلامي، ص 169 .

علاقتها بالآخرين، وتتميز ذاتها عن غيرها أمرا عسيرا¹، فالتنمية البشرية هي علم يأخذ بيد الأفراد نحو التميز والإبداع والرقي والسعي لتحسين أدائهم وزيادة فعاليتهم في أي مجال من مجالات نشاطهم، خصوصا أن كان هذه الوسائل سترتبط بدعوة مقدسة لها قوة روحية ونفوذ رباني وامتلاكها هذه الوسائل سيزيد من قوة شخصياتها وفعاليتها خطابهم.

— لقد أثار عبد الكريم بكار فكرة التنمية المتكاملة ودورها في الحد من تشتيت وعي المسلم، والاعتناء بمجال الدعوة الإسلامية كأحد أهم مجالات تحقيق هذا الوعي من خلال العمل على صحة الفرد المسلم وإشعاره بمستواه الحاضر والمستوى المطلوب منه بلوغه، خصوصا أن الخطاب الإسلامي اليوم يسير نحو التجديد والتنويع في تناول قضايا العصر لحل مشكلات المجتمع والحد من حالة الضياع والتهيه التي يعانيتها. والتنمية البشرية هي السبيل الذي سيرتقي بالخطاب الديني وبالخطيب على حد سواء، لأن المشكل لم يقتصر على بعد الخطاب عن حياة الناس فحسب بل إن لشخصية الخطيب دور بارز في خلق تلك الفجوة التي تزيد اتساعا بين الناس والدين، فضعف الأداء وغياب القنوات هي من عوامل ضعف الدعوة الإسلامية.

— لقد تطرق عبد الكريم بكار لأهمية الاستفادة من التنمية البشرية من أجل تحقيق التقدم البشري فقال: "إننا حين نتذكر أننا كنا خير أمة أخرجت للناس، وأن تلك الخيرية منوطة بقيامنا بوظائف الأنبياء — عليهم السلام — من الدعوة والهداية للخلق، ومعاونتهم على الاستقامة،

¹ عبد الكريم بكار، مدخل إلى التنمية المتكاملة، دار القلام، ط2011، 4، ص18.

حين نتذكر ذلك، ونرى التكاليف المادية الناهضة التي يتطلبها ذلك تحس بضرورة دفع عجلة التنمية والعمل من أجل توفير الحد المناسب من الرخاء، وما يتطلبه التقدم البشري من شروط وأجواء وإمكانات¹. ثم أردف كلامه هذا بكلام آخر بيّن فيه السبيل الواجب إتباعه للعودة بالدعوة الإسلامية إلى سالف مجدها وفعاليتها، خصوصا أن الدعوة الإسلامية هي الدعوة العالمية الوحيدة التي لها قوة ربانية تمكنها من اجتياح واختراق قلوب الناس وهي الدعوة الشاملة إلا أن القصور الذي أصاب وسائلها هو ما أدى لخفوتها وضعف تأثيرها، فقال: "إن العالم بحاجة ماسة أكثر من أي وقت مضى إلى من يمنحه الأهداف الكبرى لوجوده، ويرسم له منهجية مطلقة وغير بشرية للخلاص من الكرب الذي يغشاه؛ ولا يملك ذلك أحد اليوم غير أمة الإسلام، والمشكلة أن وسائلنا قاصرة، فلو استدركنا قصور الوسائل الذي تعانيه الدعوة الإسلامية بتوظيف مختلف الوسائل والأساليب العصرية المتاحة والمباحة لملئنا الفجوة التي خلفتها نقص هذه الوسائل. ثم واصل الدكتور بكار كلامه على سبيل تطوير الدعوة الإسلامية لتحقيق التقدم البشري فقال: "إن إيصال رسالتنا إلى العالم يتطلب شبكات اتصال ضخمة، وقنوات إعلامية عملاقة، حتى نجعل الصورة النقية للإسلام حاضرة في كل مكان في الأرض"². واستخدام الوسائل التي تحدث عنها الدكتور بكار تعتمد قوتها على قوة الإعلاميين والدعاة فيها، خصوصا أن الإعلام الغربي إنما تميز بالطاقات الإعلامية الهائلة التي

¹ المرجع السابق، ص 21.

² المرجع نفسه، ص 21.

يزخر بها، والتي تعد قوة خطابية واتصالية، لامتلاكها مختلف أساليب الاتصال والإقناع، وهذا ما نحتاجه في رجال الدعوة اليوم. فأساس التنمية الصحيحة الذي يجب أن يراعى في عملية الإصلاح الجاد هو الفرد، لأن التنمية "عبارة عن دفع وتحريك للكينونة الفردية والاجتماعية نحو الأفضل"¹، إن اعتائنا بالفرد ودفعه نحو التطور وحمله على التغيير هو في حقيقة دفع لعجلة الأمة نحو الأمام والتطور الحضاري.

وهو ما ذهب إليه عبد السلام ياسين من خلال نظريته للتغيير اعتبر أن من أهم وسائل وأساليب التغيير تربية الإنسان أولاً؛ "البشرية اليوم في أمس الحاجة لتغيير إيجابي ينتشل الإنسان من شقائه بما كسبت يده في معمران الحضارة المادية المتسارعة المتشابكة المعقدة التي تطوف بالكيان الجوهري للإنسان في دوامة الاتصالات الرقمية الخاطفة والمتع السمعية البصرية المميّنة للعلاقات البشرية والحقيقة الإنسانية"².

إن امتلاكنا أفراداً بإرادة وهمة ومهارة الفرد الغربي في خدمة رسالة بمكانة الرسالة الإسلامية التي لا مثيل لها، سنحقق حتماً ما لم تحققه أمة من قبل. "لذلك علينا أن نعود لاستثمار جهودنا في (الإنسان المسلم) فإذا استطعنا أن نتقدم به تقدم لدينا كل شيء، وهذا ما فعله النبي صل الله عليه وسلم حين جعل من إصلاح الإنسان وتغييره مدخلا حضارياً لتشبيد العمران، والنهوض المدني، وهذا ما أراد

¹ المرجع نفسه، ص 22 .

عبد الصمد الرضى، التغيير في نظرية المنهاج النبوي عند الإمام عبد السلام ياسين،² 2017-4-19، موقع مدرسة عبد السلام ياسين، رابط الموقع

: <https://www.yassine.net/ar/2017/04/>

القرآن الكريم أن يؤكدّه عندما قص علينا خبر الأمم البائدة، حيث لم يذكر لنا أن استئصال أي منها كان بسبب قصور عمرانّي، وإنما بسبب الحيدة عن المنهج الرباني، ووجود رسالات الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – أي بسبب قصور أنساني¹.

وبما أن التنمية البشرية هي الوسيلة المثلى والسبيل الرشيد لتحقيق النهضة والتغيير فلا ريب في كون الإسراع للاعتناء بها كفكرة مع التمحيص والتفحّيح قبل التنفيذ أمر ضروري ومستعجل لأن حال الأمة اليوم مخزي ومعيب وليس لنا إلا السعي الحثيث والجاد في سبيل الرقي والازدهار، فكل ما يقود لواجب التغيير فهو واجب لا محالة .

والتنمية البشرية تحمل في حقيبتها أساليب جديدة للتواصل والتخاطب والإقناع والإبداع والتخطيط وصناعة الأهداف، وهذا ما يسهل عملية تنميته الفرد وإكسابه القيم والأخلاق والمبادئ الإسلامية.

الخاتمة:

إن كل من التنمية البشرية والدعوة الإسلامية مطلبان مهمان لتحقيق التطور الحضاري وتلبية احتياجات وظيفية الاستخلاف على أكمل وجه؛ إذ تتجسد من خلالها مظاهر الاعتناء بالفرد المسلم والسمو به نحو الكمال البشري، والدعوة الهادفة الناجحة تتطلب مهارات وآليات واجبة التوفر في القائم بالدعوة للتمكن من التحكم في أمورها وتسيير مؤسساتها وتحقيق أهدافها.

عبد الكريم بكار، مدخل إلى التنمية المتكاملة، ص 23 .¹

لذلك فإنه من الواجب وجود علم معاصر يحتوي حقيبة من الأساليب كالتى تضمها التنمية البشرية تساهم فى تحقيق مشروع التغيير الحضارى.

ومن بين النتائج المتوصل إليها ما يلي:

- 1- يعد التكامل بين التنمية البشرية والدعوة الإسلامية من حاجات العصر ومتطلبات التطور الحضارى لنجاح عملية التغيير والنهضة.
- 2- ضرورة استدراك أخطاء العمليات الإصلاحية السابقة من خلال إتباع طرق وأساليب حديثة مليئة بالأفكار الإبداعية والسمو بالعمل الدعوى نحو التنظيم.
- 3- ضرورة الإعتناء بتأهيل الأفراد وتدريبهم باعتبارهم أساس عملية تغيير والتطور الحضارى؛ من خلال اكتشاف مهاراتهم الدفينة وتطويرها واكسابهم مهارات جديدة وبرمجتهم على أفكار وسلوكيات بديلة صحيحة تجعلهم أفرادا ناجحين أينما حلوا سواء فى بناء علاقتهم الاجتماعية أو فى حياتهم العملية. وهذا ما تليبه التنمية البشرية من خلال سلسلة الأساليب والمهارات التى تمنحها للدعاة والمعلمين.
- 4- حاجة الأمة لشخصيات قيادية تكون قادرة على التغيير والنهضة، وهذا ما تحققه لنا التنمية القيادية التى تعد مشروع متكامل لتهيئة الفرد منذ نعومة أظافره وفى مختلف الأماكن التى تتولى رعايته وبناء شخصية قيادية مؤهلة لوظيفة تبليغ الدعوة الإسلامية.
- 5- ضرورة التعامل مع التنمية البشرية من باب الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها، شرط أن يكون هذا التعامل من خلال رؤيتنا الإسلامية الخاصة التى تهدف إلى خيرية الإنسانية.

في الختام على كل فرد مسلم يحمل هموم الأمة نصب عينيه أن يسعى سعيا حثيثا لإنجاح مشروع التغيير الحضاري بأن يكون فردا صالحا ونموذجا يحتذى به في مجتمعه، لأن التغيير الحضاري لن يتم إلا بوجود أفراد قادرين على التغيير وعلى أداء وظيفة الاستخلاف.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- إبراهيم صلاح السيد هدهد، تجديد الخطاب الديني ضرورة كل عصر، مجلة منار الإسلام، العدد 495.
- 2- البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر، دمشق، سوريا.
- 3- جودت سعيد، التغيير مفهومه و طرائقه. ندوات الفكر الإسلامي المعاصر 2، دار الفكر، دمشق، سوريا.
- 4- سعيد عبد الله حارك، أسس تنمية الموارد البشرية من منظور إسلامي، مجلة الوعي الإسلامي، العدد 532، تاريخ العدد 03-09-2010.
- 5- سهيل الغنوشي، هكذا تنهض الشعوب والأوطان ، موقع الجزيرة، رابط الموقع: <http://www.aljazeera.net/knowledgegate>
- 6- طارق سويدان، مقدمة في مشروع التغيير الحضاري، برنامج رياح التغيير، قناة الرسالة، رابط الموقع: <http://video.search.yahoo.com/search/video?fr=tightropetb&p=%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%BA%D9%8A>
- 7 أ طلال فائق الكمالي، التنمية البشرية في القرآن الكريم دراسة موضوعية، (د.ن)، (د.ط.)، (د.ت).
- 8- عبد الكريم بكار، من أجل الدين والأمة، دار السلام، ط1، 2010.

- 9— عبد الكريم بكار، مدخل إلى التنمية المتكاملة، دار القلم، ط1، 2011، 4، .
- 10— عبد الصمد الرضى، التغيير في نظرية المنهاج النبوي عند الإمام عبد السلام ياسين، 19—4—2017، موقع مدرسة عبد السلام ياسين، رابط الموقع: <https://www.yassine.net/ar/2017/04/>
- 11— عمر عبيد حسنة، المنهج النبوي والتغيير الحضاري، موقع المكتبة الإسلامية، رابط الموقع:
- http://library.islamweb.net/newlibrary/display_umma.php?lang=&BabId=18&ChapterId=18&BookId=243&CatId=201&startno=
- 12— مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دار الوعي، ط1، 2013.
- 13— مجدى هلالى، كيف نغير ما بأنفسنا، دار الأندلس الجديدة للنشر والتوزيع، ط1، 2011.
- 14— محمد موسى، فلسفة الثورة: بين بناء الذات وبناء الحضارات، موقع نون بوست، تاريخ النشر: 32—أكتوبر—2013، رابط الموقع:
- <http://www.noonpost.org/content/772>